البارسي في الرحلات العربية

د. محمد عفان *
Email: affanbgsbu@gmail.com

ملخص البحث:

لفتت طائفة البارسيين التي لا تعدو أن تكون حفنة بشرية في الهند المعروفة لكثافتها السكانية أنظار غالبية الرحالين العرب. فكل من فتح الله أنطاكي وأمينة السعيد ونوال السعداوي ومحمد المخزنجي وناصر العبودي يقفون لدى هذه الجماعة، وذلك لسببين رئيسيين؛ نجاحها الباهر في مجال الاقتصاد، وطريقتها في "تدفين" الميت. إن لهذه الطائفة دورا مهما في تصنيع الهند، وتحويل مدينة ممبئي إلى عاصمة اقتصادية، بالإضافة إلى أولويات في مجالات علمية وثقافية واجتماعية أخرى. أما رغبة الاطلاع على طقوس تدفين الميت أو التخلص منهم عبر "الدوخمات" أو أبراج الصمت فتثير فضول أغلبية السائحين. ولكن ليس هذان السببان وحدهما يستوقفانهم، بل إلى جانب ذلك هم يتعرضون لجميع ما يمسهم من معتقدات وسلوك وأعراف وطقوس. فقد تناولوا بالذكر الزرادشتية، ونبيها، وتوجيهاتها الدينية، ومبادئها الأخلاقية، وهجرة أتباعها إلى الهند، ثم انخراطهم في المجتمع الهندي مع احتفاظ بخصائصهم الإثنية، وإن اختلفوا فيما بينهم حسب نزعاتهم وميولهم وتجاربهم في إيجاز البيان وتفصيله.

كلمات مفتاحية: أبراج الصمت، الاقتصاد، البارسي، الرحلات، زرادشت، الهند.

Abstract:

The Parsis who are no more than a handful in India known for its population density, has attracted the attention of the majority of Arab writers who came to India and recorded their observations and impressions. Whether it is Fathallah Antaki or Amina Al-Saeed or Nawal Al-Saadawi or Mohammed Al-Makhzanji or Nasser Al-Aboudi almost all of them deal with this community, and that is basically for two main reasons: their outstanding success in the field of economy and their way of "burying" the dead. This community played very important role in enriching modern India. They transformed the city of Mumbai into

* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة غلام شاه بادشاه، راجوري، جامو وكشمير، الهند.

financial capital. Besides they have several firsts in different scientific, cultural and social fields. As for the intense desire to see the rituals of burying the dead or disposing of them through "dokhma" or the towers of silence, it raises the curiosity of the majority of travellers. But these are not the only aspects that attract them; they also deal with their beliefs, moral values, customs and rituals. They mention Zoroastrianism, its prophet, its belief system, its moral principles, the migration of its followers to India, and their assimilation in Indian society while retaining their ethnic characteristics, though they differ in depiction according to their tendencies and experiences.

مقدمة:

هنا في بلادنا الهند، طائفة دينية عرقية ممتازة، هي في أقلية قليلة، جاءت مهاجرة إلى الهند قبل ألف سنة وأكثر، لأغراض تجارية ودينية، وذابت في المجتمع الهندي ذوبان السكر في الحليب، مساهمة في تحلية الحياة الهندية وتجميلها، مع احتفاظ بامتيازها العرقي، وموروثها العقدي والثقافي، في خضم الديانات والثقافات والفلسفات، حتى آن أوان صار بعض عطاءاتها أثاث كل بيت، وزينة كل شارع. ألا يعلم كلنا العلمين "غودريج" و"تاتا"؟ بلى! وإنه قد تقرر بين العامة أن يسمى كل دولاب حديد مهما كانت صناعته وإنتاجه ونوعه وماركته "غودريجا"...

هي طائفة "البارسيين" كما يسمون نسبة إلى موطنهم الأصلي "فارس"، أتباع الديانة الآفستية، أو المزدية" أو "الزرادشتية" كما اصطلح عليها الأوربيون ومعهم العالم فيما بعد، أو "المجوسية" التي راجت بين المسلمين رواجا أكثر من غيرها من الأسماء، أو "مزدا يسنا" التسمية التي يصر على استخدامها الأستاذة صبر. ج. هافيوالا لأن مصطلح الزرادشتية في رأيها "يفشل في بيان مبادئ هذه الديانة العظيمة وأهدافها وفلسفتها"[1] أو عبدة النار نظرا لقداستها عندهم وتقديسهم إياها.

يشكل البارسيون أقل من 0.007٪ من مجمل سكان الهند ولكن إسهاماتهم أكثر بكثير مقابل عددهم. كان دور هذه الطائفة الصغيرة في إثراء الهند المعاصرة ملموسا، وشملت إسهاماتهم مجالات التجارة والصناعة والقانون والأدب والدفاع

[1] -البروفيسور صبر ج. هافيوالا،"**مزدا يسنا [Mazda Yasna]** (ديانة يعتنقها البارسيون الهنود الزرادشتيون الإيرانيون) **ثقافة الهند**، أبريل -يونيو 2017م، المجلد: 68، العدد:2، ص:172.

والنضال الوطني والموسيقى والعلوم النووية؛ تخصصت "تاتاز" و"غودريجيز" و"وادياز" في بناء الصناعة الحديثة، ونال الدكتور هومي بهابها لقب أب البرنامج النووي، واشتهر المشير سام هورموسوجي فرامجي جمشيد جي مانيكشاؤ في مجال الدفاع، وناني بالكي والا وفيروز شاه مهتا وسولي سورابجي في مجال المحاماة، وزوبين مهتا وباناز ماساني في مجال الموسيقى والغزل والطرب، ومادام كاما وشابورجي شاكلاتوالا وكابتان بيرين نوروجي وإيم. ب. غودريج وجهانغير باتيل وغيرهم في ميدان الكفاح لتحرير البلاد، وفروخ دهوندي وبابسي سيدهوا في الأدب.

الديانة الزرادشتية:

البارسيون هم أتباع "الزرادشتية"، ديانة قديمة يرجع تاريخ ظهورها إلى ما قبل الميلاد بقرون وألفيات، ولتقادم الزمن يحيطها ويحيط نبيها زرادشت (زراشوسترا) غموض دعا بعض الباحثين إلى أن ينكروا وجود زرادشت أصلا؛ يقول أحمد أمين: "وقد كان وجود زرادشت نفسه موضع شك عند كثيرين، وموضع جدل طويل بين النافين والمثبتين، واختلف المثبتون في تاريخ وجوده على أقوال تتردد بين سنة 6000 قبل الميلاد و600 ق. م. وقد ألف الأستاذ "جاكسن Jackson" كتابا قيما في حياته كان له أثر كبير في ترجيح كفة المثبتين لوجوده، وقد وصل بحثه إلى أن زردشت شخص تاريخي لا خرافي، وأنه كان من قبيلة ميديا (في الجزء الغربي الشمالي من فارس)، وأنه ظهر أمره نحو منتصف القرن السابع قبل الميلاد، ومات نحو سنة 583 ق. م بعد أن عمر 77 سنة، وأن موطنه كان آذربيجان، لكن أول نجاح ناله كان في بلخ، وعلى أثر دخول الملك "بشتاسب" في دينه، وأن دينه انتشر في بلخ إلى فارس كلها"[2]. ولكن إذا كانت التحقيقات القديمة تضع حياة زرادشت ما بين 6000 و600 قبل الميلاد، ترى التقديرات الحديثة أن الأرجح والأصوب وجوده في الفترة ما بين 1500 و1000 ق. م.[3].

يعتبر زرادشت من أهم الشخصيّات الدينية والإصلاحية والأخلاقية التي أثرت على مجرى الحياة الروحية والإنسانية والحضارية في العالم. وظلت الزرادشتية مزدهرة كديني رسمي للفرس عبر ثلاث إمبراطوريات فارسية عظيمة؛ الأخمينية (550-330

[2] -أمين، أحمد، **فجر الإسلام**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2004م)، ص: 103.

[3] - A Study of World's Major Religions, Farida Khanam, Chaus Publishing Company, Aurangabad, 2014, P: 256

ق.م.) والبارثية (247 ق.م.-224م) والساسانية (224م-651م)، إلى أن كان الفتح الإسلامي في عام 637م الذي يعتقد أن الديانة اختفت بعده تقريبا من أرض مولدها"[4]. اعتنق أكثر أتباعها الإسلام، ولم يبق منهم على الدين القديم إلا القليل، ومنهم من هاجر إلى بلدان ومناطق أخرى لتصير الهند بينها موطن أكبر تجمع لهذه الجالية في العالم.

أما ما يتعلق بأساسيات هذه الديانة ومبادئها فهي ابتدأت بالتوحيد، الإيمان بـ"أهورامزدا" (إله النور والحكمة) خالق كل شيء، ومصدر كل خير وجمال في العالم، ثم تطورت إلى الثنائية، ظهر فيها "أهريمان" كإله الشر، ومصدر كل ظلم وظلام؛ هو من صميم ذات أهورامزدا وليس منه، وبين الإلهين صراع مستمر ينتهي آخر الأمر بانتصار أهورامزدا على أهريمان. وعلى المؤمن أن يعاون أهورامزدا بالأعمال الصالحة ليحظى برضاه، وبالعيشة الراضية بعد الموت.. أما الذي يعاون أهريمان من خلال أعماله السيئة فتنتظره عواقب وخيمة.

الزرادشتية تؤكد على الخيارات الأخلاقية، ووفقا لها المرء مخير غير مسير، حر الإرادة إن شاء أطاع إله الخير، وقام بالعمل الصالح، أو خضع لأهريمان، واستسلم لنوازع الشر، وانغمس في الأعمال السيئة، ومن ثم هو المسؤول عن أعماله. الخير للذين يعملون الخير، أما القائمون بسوء الأعمال فساء سبيلهم وساء مصيرهم. وهذه الأخلاقيات الزرادشتية تجمعها ثلاث كلمات أفستية (هماتا وهوكهاتا وهفارشتا)؛ النوايا الصالحة، والكلمات الطيبة والأعمال الطيبة.

كذلك توجد في هذا الدين تصورات البعث والعقاب و"الصراط" والجنة والنار. بعد أن يموت الإنسان تبقى روحه في حماية "الملك سروش يزد" لثلاثة أيام، واليوم الرابع هي تمر "بالصراط" أو "شيناوات"حيث يتم محاسبتها ومحاكمتها. الأرواح الخيرة تدخل الجنة، بينما الأرواح الشريرة تدخل مكانا مخصوصا للعقاب. وسيقوم البعث الذي يأتي بعده في الوجود عالم جديد خال من الشرور- وفي التعبير القرآني "لا لغو فيها ولا تأثيم" -تنعم فيه روح المؤمن الصالح بالحياة السعيدة الخالدة في ظلال رحمة ربها الكريم.

---

[4] Ibid: P: 256-

كما للزرادشتين عبادات وشعائر ومراسم، منها ما يخص الحياة اليومية، ومنها ما يتعلق بالمحطات الحياتية المهمة. معبد النار هو أقدس الأمكنة لديهم حيث يقوم السدنة بترتيل وتلاوة الصلوات والأدعية ليلا ونهارا، كما يقومون بالصلاة عدة مرات في اليوم. كما للطهارة أهمية بالغة في هذه الديانة، بل هي عبادة، وهي تشمل الإنسان وما حوله من كائنات. ويعتبر طقس "باريشنم" من أعظم وأهم مراسيم الطهارة والتطهير. كما تحمل العناصر الأربعة من ماء وهواء ونار وأرض القداسة، فلا يجوز تنجيسها بصورة ما، وإن فاقت النار دون العناصر الأخرى في قداستها لأنها رمز الطهارة المطلقة والنقاء الخالص والصفاء المجرد. كذلك يعتبر "نافجوت" أو التعميد من أهم طقوس هذه الطائفة، فبعد أداءه وحده يكون الفرد المولود فيها عضوا حقيقيا منها. ويتم القيام بمراسمه قبل أن يبلغ الطفل حلمه، يلبس فيه الطفل "السدرة" (الصديرية) التي تكون لاصقة بأعلى جسمه و"كوشتي" (المصنوع من 72 خيطا من الصوف الجيد يرمز إلى 72 بابا من الكتاب المقدس أفيستا) الذي يلفه حول خصره، ويقوم الزرادشتي بفكه ولفه مرات عديدة كل يوم لتذكير نفسه بالشعائر والأوامر الدينية. ومن مراسيمها المهمة أيضا ما يتعلق بالميت وتدفينه أو التخلص منه. يعتبر جثمان الميت نجسا منجسا يجب التخلص منه بصورة لا تؤثر في العناصر الأخرى، فيوضع على "الدوخما" أو "برج الصمت" ليلتهمه جوارح الطيور، وما يبقى من عظام تعمل فيها الشمس والمطر وتقلبات الفصول فيحيلها إلى كلس ورفات فيتحلل وينزل من منافذ شبكية إلى آبار ذات حصايا ورمال هي تستبقي البقايا وتدع سواها تخرخ من مسارب إلى البحار والأنهار.

من إيران إلى الهند:

ربما وجد الزرادشتيون في أرجاء شبه القارة الهندية قبل هجرتهم التاريخية إليها بعد الفتح الإسلامي، ولكن التاريخ الحقيقي لتواجد هذه الطائفة في الهند يبدأ من القرن الثامن الميلادي. ولعلها تجمعت هنا خلال هجرات عديدة طريقها البحر ووسيلتها السفن الصغيرة. والحقيقة أنه يصعب اليوم ترميم كل السياق التاريخي، خاصة أنّ المستند الرئيسي لتاريخ هذه الهجرة ليس كتاب تاريخ، بل كتاب شعر، قصيدة طويلة

للشاعر البارسي بهمان كاي كوباد نهاية القرن السادس عشر، وضعت بالفارسية، ونقلت إلى اللغات الهندية الأخرى.

يعرف كتاب الشعر هذا بـ"قصة سنجان"، قصة الهجرة من إيران إلى سنجان في الهند. يتحدّث الشاعر عن ثلاثة محن كبرى منيت بها ديانة زردشت عبر التاريخ: غزو الإسكندر المقدوني، وفتنة ماني، والعصر الإسلامي.

حسب قصة سانجان "Qissa-i Sanjan " إن أول قدوم كان من منطقة "خراسان الكبرى"، ومنح المهاجرون منهم الإذن بالإقامة في غوجرات من قبل الحاكم المحلي جادي رانا شرط تبنيهم للغة المحلية (الغوجراتية)، وبشرط تبني نسائهم للباس المحلي (الساري)، وبشرط تخليهم عن حمل السلاح[5]. وتجدر الإشارة إلى أن لقصة سانجان دورا مهما في تشكيل هوية البارسيين في الهند كطبقة عرقية مستقلة.

أما عن أسباب الهجرة فتختلف فيها الآراء. الرأى العام هو أنهم هاجروا خوفا من الاضطهاد الديني حفظا لعقائدهم وصونا لكرامتهم، ولكن هناك من يرى أن الاضطهاد الديني قد يكون سببا من الأسباب لا كل الأسباب، ولا يمكن استبعاد الدوافع التجارية أصلا... نتائج التحقيقات الناتجة عن الحفريات تدل على أن المهاجرين كانوا من التجار، وعلى علم بطرق التجارة، والمكان الذي اختاروه للإقامة كان مركزا تجاريا حيويا[6]. على أية حال بعدما أقاموا بالهند جعلوها دارهم ووطنهم، وعرفوا بالبارسيين، ويعيشون هنا منذ 1300 سنة كجزء لا يتجزأ من المجتمع الهندي مساهمين في تقدمه الاقتصادي والاجتماعي.

البارسي في الهند والعالم:

يقدر عدد البارسيين بستين أو سبعين ألف نسمة في الهند أو ما يقاربهما، بينما يقال إن عددهم عبر العالم حوالي 190000 نسمة. فهم يقيمون الآن بشكل رئيسي في إيران والهند، في حين أن هناك أعدادا منهم قليلة في باكستان وأفغانستان وآذربائجان،

[5] -وسام سعادة، **البارسيون: زردشتيو الهند ورواد التصنيع والتحديث وعبادة النار فيها**، رصيف 22 https://raseef22.com/ تاريخ النشر: 28 يناير 2017م، تاريخ الزيارة: 15 أكتوبر 2018م.

[6] -راجع: World's Smallest Business Community, Reshmi Lahiri Roy, International Journal of Interdisciplinary social sciences, vol. 6, no: 2, http://hdl.handle.net/10536/DRO/DU:30041789

وفي أجزاء من شمال أمريكا والمملكة المتحدة والمنطقة الأقيانوسية وسنغافورة. ووفقاً لتقديرات مسح Survey Fezana Journal (وهو اتحاد للجمعيات الزرادشتية لأمريكا الشمالية) لعام 2004، تضاءل عدد الزردشتين عبر العالم إلى حوالي 190000[7]. وعدد البارسيين في تناقص مستمر بصورة مقلقة لأسباب عديدة، فوفقا لتقرير يونسكو يتناقص عدد البارسيين في الهند بنسبة 10 ٪ في إحصاء كل عشر سنوات[8].

البارسي والتحديث والتصنيع:

عاش البارسيون في غوجرات وضواحيها "نافساري" و"بروش" و"كامبي" و"اوروادا" و"سورات" لحقب طويلة. وخلال القرن السادس عشر والسابع عشر كانت سورات مركزا تجاريا مهما للبرتغاليين والإنجليز والمغول، وهكذا وفرت هذه المنطقة فرصا للبارسيين ليتمركزوا فيها وفي ما جاورها نافساري ويقوموا بالتجارة... وخلال نفس الفترة، سنحت للبارسيين وخاصة المنتمين منهم إلى مدينة سورات حيث كان لشركة الهند الشرقية حضور ملموس فرصة نادرة للعمل كوسطاء بين بلاط مغل والتجار الأوروبين؛ إنجليز وبرتغاليين، وأمكن للبارسيين من هذه الوساطة معرفتهم لغة المغول أي الفارسية فضلا عن بعدهم عن العوائق الدينية والاجتماعية المتمثلة في أفكار وتصورات النجاسة والتدنس من جراء الاقتراب من الأجانب كما كان المتصور والمعمول في الهندوس. هذا الاحتكاك والتعامل مع البرتغاليين والإنجليز جاء بالبارسيين إلى مامباي في أوائل القرن السابع عشر .

مومباي مدينة الزحام والأحلام والأفلام قبل أن تمسها عصا الإنجليز السحرية وتحولها إلى ما هي الآن كانت جزرا، وقصة صعود مامباي هي قصة طلوع نجم البارسيين. وعلى لسان محمد المخزنجي: "ومع صعود المدينة البارق من وهاد الجزر إلى قمة الاقتصاد الهندي، صعد المجوس بسرعة صاروخية قبل أن تكتشف الصواريخ"[9].

---

[7] A Study of World's Major Religions, Farida Khanam, P: 274-

[8] Ibid, P: 275-

[9] -المخزنجي، محمد، **جنوبا وشرقا: رحلات ورؤى**، (القاهرة: دار الشروق، 2011م)، ص: 371.

استغل البارسيون على أحسن وجه الإمكانيات والفرص التي وفر لهم هذا الاحتكاك؛ نهلوا من الثقافة الغربية وعبوا منها، كما استفادوا من الفرص التجارية، وتحولوا منذ القرن التاسع عشر الأكثر طائفة هندية على النمط الغربي، بل الإنكليزي في معاشها اليومي، وكوزموبوليتية في انتمائها إلى فضاء مدينيّ هو بومباي. وهكذا يشكل البارسيون إحدى الجماعات الأكثر ثراء، وتتركز فيهم مجموعة من أكبر العائلات الصناعية. ولا يمكن الحديث عنهم دون إغفال تصدرهم للثورة التصنيعية في البلاد، فإليهم يرجع فضل تحويل مومباي إلى عاصمة اقتصادية لجنوب آسيا[10].

يسجل للبارسيين في الهند عديد من الأوليات والإنجازات التي ساهمت في تنمية الهند اقتصاديا واجتماعيا، ومن أهم الأوليات التي ارتبط بها اسمهم، إنشاء بورصة بومباي في عام 1875 (أول بورصة في آسيا)، ومصنع تاتا للحديد والصلب (أول مصنع الصلب في الهند)، والبنك المركزي الهندي (أول بنك هندي)، وأول شركة طيران (طيران الهند)، وفندق تاج محل (أول فندق خمس نجوم، وأول مستشفى عام، كذلك أول مستشفى الحيوان.

هذه هي القصة الوجيزة لهذه الطائفة الصغيرة؛ لموطنها ونشأتها في إيران، ومعتقداتها وطقوسها، وهجرتها إلى الهند واستيطانها، وتميزها، ومكاسبها وإنجازاتها. ويسجل الرحالون العرب جميع هذه الجوانب والملامح في رحلاتهم.

البارسي في الرحلات العربية:

استرعت هذه الطائفة انتباه معظم الرحالين العرب إلى الهند، ودفعتهم إلى أن يتحدثوا عنها ولو اقتضابا، في جملة أو جملتين. بينما حصلت هذه الرحلات في فترات مختلفة تمتد إلى قرن ونصف تقريبا بداية من "الهند كما رأيتها" لفتح اللّه أنطاكي، و"مشاهدات في الهند" لأمينة السعيد في الأربعينيات قبل انقسام الهند، مرورا بـ"حول العالم في 200 يوم" لأنيس منصور في الستينيات، و"رحلاتي في العالم" لنوال السعداوي في السبعينيات، وصولا إلى "جنوبا وشرقا: رحلات ورؤى" لمحمد المخزنجي و"في غرب

[10] https://raseef22.com/life/2017/01/28-

الهند: مشاهدات وأحاديث في شؤون المسلمين" لناصر العبودي في الثمانينيات. أما الاحتكاك بهذه الطائفة والتعامل معها ومشاهدتها عن كثب، فربما لم يسنح ذلك لمنصور فجاء كلامه على هامش حديثه عن المخاطر المزعوم أكثرها في الهند...أما زملاؤه الرحالون الآخرون فعرفوها معرفة دراسة ومشاهدة، وسجلوها حسب أذواقهم واهتماماتهم الخاصة، فبينما ينصب اهتمام أمينة السعيد على وضع المرأة البارسية، يثير "برج الصمت" فضول ناصر العبودي ومحمد المخزنجي كليهما، وعلى حين يفشل العبودي في إرواء فضوله، ويرتد خائبا شاكيا من الأبواب الحديدية الضخمة، ينجح المخزنجي في اختراق الأسوار وإن آل مصيره آخر الآمر إلى ما آل إليه مصير ناصر العبودي؛ وجد في وجهه آخر الأبواب الحديدية...إذ لا يجوز لغير البارسي النظر إلى النار المقدسة. في جانب آخر يتقابل كل من فتح الله أنطاكي ومحمد المخزنجي في الحديث عن هذه الطائفة بشيء من التفصيل: عن معتقداتها وطقوسها وتقاليدها، باختلاف يسير حيث تجذب طفولة البارسي والطقوس الخاصة بها عناية الأنطاكي، ويستوقف الموت وما يصاحبه من مراسم نظر محمد المخزنجي...

أما الشيء اللافت للنظر الذي جذب اهتمام الرحالين العرب بهذه الطائفة دون الطوائف والجماعات الهندية الكثيرة، الصغيرة منها والكبيرة، فحديث محمد المخزنجي قد يقدم لنا الكلمات المفتاحية لمعرفة هذه الطائفة. يقول: ..."الذي استوقفني وأثار فضولي في الزرادشتيين "المجوس" شيئان: أولهما هذا النجاح اللافت للانتباه في التجارة والصناعة ومن ثم مراكمة الثروات والتميز الاجتماعي الخارق للعادة، وثانيهما ما يتعلق بالطقوس، خاصة معابد النار، وطريقة دفن موتاهم.. في بطون جوارح الطير![11].. وفي رأينا ينسحب نفس السببين المذكورين على الرحالين الآخرين. فيقول فتح الأنطاكي في موضع من كتابه "الهند كما رأيتها": ... والفرس ويبلغ عددهم مئة ألف نسمة وقد عرفوا بالاقتصاد والنشاط في جمع المال... ويقول في موضع آخر: "يعد عبدة الشمس والنار أو المجوس من أنشط وأذكى التجار في الهند، وكثير منهم حازوا المناصب السامية والمراكز العالية في الإمبراطورية وفيهم عدد كبير من النوابغ الذين

[11] -المخزنجي، **جنوبا وشرقا: رحلات ورؤى**، ص: 370.

حازوا أرفع الأوسمة والرتب الإنجليزية كالسردينشوا باتت والسر جيجيبوي والسر تاتا المحسن الكبير الذي أنشا أعظم معهد هندي للأبحاث العلمية.

والزردشتيون قوم متمدنون اقتبسوا كثيرا من المدنية الغربية وأولادهم مثقفون تثقيفا تاما ويسافر سنويا لطلب العلم في أرقى الجامعات الإنجليزية في لندن عدد كبير من أبناء الأغنياء والمتوسطي الحال منهم"[12].

وتقول أمينة السعيد: "وهناك طائفة أخرى قليلة العدد عظيمة القوة والنفوذ في الهند وهم البارسي أو عبدة النار الذين يعيشون في بمباي، ويسيطرون على التجارة والصناعة ودور المال. وقد أتقنوا هذه النواحي، وبرعوا فيها، فأصابوا من المال ما لا يحصى ولا يعد، وامتلكوا أعظم مصانع البلاد، وأكبر شركات الطيران والتصدير والفنادق فيها... إن "البارسي" أو عبدة النار في الهند فئة صغيرة إذا قيست بالمسلمين والهندوس، مع ذلك فهي طائفة هامة لا يصح إغفال شأنها، لمهارة أفرادها، وتفوقهم في ميادين التجارة والصناعة؛ فدانت لهم كنوز البلاد واقتنوا ثروات لا تحصى أموالها ولا تعد"[13].

أما نوال السعداوي فبينما هي سائرة في شارع من شوراع مدراس (تشينائي الآن) يجذب نظرها ماركة خاصة على اللوريات: "لاحظت أن معظم هذه اللوريات تحمل اسم "تاتا"، وسألت: من هو "تاتا"؟ فعرفته أنه مليونير هندي يملك اللوريات والفنادق وعددا من الشركات والمشروعات التجارية والصناعية في الهند. في كل مكان في الهند لا بد أن ترى اسم تاتا فوق أي شيء"[14].

هذا عن المكانة الاقتصادية والاجتماعية لهذه الطائفة. أما عن الجانب الآخر، أي ما يتعلق بطقوس الموت: فيقول أنيس منصور في إشارة خاطفة:.. "ومن الأجسام الحية والأجسام الميتة التي تحرم بعض الديانات الهندية دفنها، وإنما تتركها للصقور والنسور تمزقها وتأكلها وتطير بها.. أو تطير ببقاياها..."[15].

---

[12] -أنطاكي، فتح الله، **الهند كما رأيتها**،(مصر: مطبعة وديع أبو فيصل،د.ت)، ص: 42.

[13] -السعيد، أمينة، **مشاهدات في الهند**، (القاهرة: دار المعارف للطباعة والنشر، 1946م)، ص: 39.

[14] -السعداوي، نوال، **رحلاتي في العالم**،(المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي سي آي سي، 2017م)، ص: 142.

[15] -منصور، أنيس، **حول العالم في 200 يوم**، (القاهرة: دار الشروق، 2002م)، ص: 37.

ويقول ناصر العبودي:.."وعادتهم إذا مات الميت منهم ألا يدفنوه كما يفعل المسلمون، ولا يحرقونه كما يفعل الهندوكيون، وإنما يلقون به في بئر في هذا المكان فتأتي إليه طيور جارحة قد اعتادت على ذلك فتقضي على جثته تمزقها وتنهشها حتى تدعها عظاما ما عليها لحم أو عصب"[16].

وأما نوال السعداوي فتصف ما رأت وسمعت على النحو التالي: "وهناك مجموعة "الفارسيين" وهم الذين يعبدون النار، ويعلقون جثث موتاهم في شجرة لتأكلها طيور معينة، اسمها "قالتشرز". في بومباي أخذنا أحد هؤلاء الفارسيين لنرى كيف تأكل الطيور الجثث. لم نر إلا الطيور الجائعة المفزعة تهبط فوق "برج الصمت". إنه برج عال بني خصيصا في وسط المدينة لتوضع فوق قمته جثث الموتى وتترك الطيور لتأكلها. داخل البرج بئر عميق تسقط فيه العظام بعد أن تتركها الطيور، وتذوب هذه العظام في حامض معين داخل البئر لتتلاشى تماما"[17]. ويبدو من دراسة الرحلات المذكورة أعلاها أن كلا من ناصر العبودي ونوال السعداوي ومحمد المخزنجي زاروا "دونجيروادي" أو المكان الذي يقع فيه أبراج الصمت. ونحن نؤخر الحديث عن المخزنجي لأن مغامراته لأجل استنطاق أبراج الصمت يقتضي شيئا من التريث والتفصيل.

المرأة البارسية:

بالإضافة إلى ما أسلفنا نجد جوانب أخرى لحياة البارسيين تستلفت الرحالين، وعلى رأسها وضع المرأة. فالمرأة البارسية تستوقف كلا من فتح الله أنطاكي وأمينة السعيدة بملامحها وثقافتها ومكانتها وسلوكياتها. وما يجمع بين الكاتبين أن كليهما يشيران بنبرة شاكية إلى مظاهر التغرب في نساء هذه الطائفة، بل إن انطباعات أمينة السعيد عنها تصل حد التحامل والحكم الذي لا تؤيده الحقائق.

يقول فتح الله أنطاكي متحدثا عن الجمال الذي يتميز بها البارسيون رجالا ونساء: "وقد اشتهر المجوس بجمال الخلق ورشاقة القوام والعيون الساخنة كما إنهم احتفظوا

[16] -العبودي، محمد ين ناصر، **في غرب الهند مشاهدات وأحاديث في شؤون المسلمين**،(دعوة الحق - العدد 180 - رابطة العالم الإسلامي) ص: 31.

[17] -السعداوي، **رحلاتي في العالم**، ص: 184.

بالجمال الإيراني القديم الذي كان مضرب المثل في العهود السابقة، وهم لم يختلطوا بالأجانب، لم تمتزج دماؤهم بدماء غيرهم من باقي الملل والنحل..."[18].

أما المرأة البارسية فيكتب عنها: "ولنساء المجوس قسط وافر من الحرية، وهن يظهرن في الأندية والمجتمعات سافرات الوجوه عاريات الصدور كالغربيين تماما كما أنهن يرقصن في المجتمعات مع رجالهن وأقاربهن وأصدقاء العائلة الأعزاء"[19].

أما أمينة السعيد فترى أن: "للمرأة البارسية من الخصائص ما يميزها من غيرها، فهي بيضاء اللون، وللدماء الفارسية التي تجري في عروقها أثر في هذا. وبفضل اتساع ذهن البارسي وتسامحهم حسن مركز نسائهم؛ وبفضل المال الوفير تفتحت أمامهن أبواب العلم، فاخترن الأجنبي منه، وتخرجن في الجامعات الإنجليزية بنجاح، ولكنهن مع الأسف اتبعن خطوات أهل طائفتهن من حيث التشبه بالسكسون في الحياة والتصرفات وأسلوب الحديث والتواء اللسان".

ثم تعلق على أسباب هذا التغرب قائلة: وقد يكون السبب في تعلق المرأة البارسي بأهداب الأجنبي، ما يمليه شعور الأقليات من تصرفات شاذة في بعض الأحيان؛ وقد يكون السبب أيضا وفرة المال، فامتلأت بالغرور، وأحست أنها ترتفع فوق مستوى مواطنيها؛ ولكن النتيجة على كل حال أن فقدت ميزاتها كهندية حرة، وأصبحت مخلوقا عجيبا، ما هو بالأوربي، لاختلاف اللون والتقاطيع والعبادة والعادات، وما هو أيضا بالهندي، لشذوذه عن الحياة المألوفة عند الهنود، ولا شك أن تشبه البارسي رجالا ونساء بالأوربيين وتعلقهم بأهداب المدنية السكسونية، قد أبعد قلوبهم عن الهند، وشغلهم عن قضاياها الوطنية"[20].

فتح الله أنطاكي:

في جانب آخر حينما نلقى نظرة عابرة على الرحلات التي نحن بصددها، نجد فتح الله أنطاكي ومحمد المخزنجي أكثر زملائهم الرحالين اهتماما بهذه الطائفة،

---

[18] -أنطاكي، **الهند كما رأيتها**، ص: 42.

[19] -المصدر نفسه، ص: 43.

[20] -السعيد، **مشاهدات في الهند**، ص: 80.

فالتفاصيل عن معتقداتها وطقوسها المختلفة التي نجدها عندهما لا نجد لدى الآخرين. وأول ما نلاحظه عند فتح أنطاكي عنوانه الذي يقيمه وانطباعه الذي يستهل به للحديث عن البارسيين، فهو يسميهم عبدة الشمس والنار، "إن دين زردشت هو دين عبدة الشمس والنار" كما هو أيضا يطلق عليهم المجوس، وهذا جريا مع الاسم العام، بينما الحقيقة هي أنهم لا يعبدون الشمس ولا النار، وهذا النوع من التسمية يثير سخط الأستاذة صبر ج. هافيوالا، وتعتبره من اختلاقات الأوروبيين الباطلة، فهي تقول: تحمل العناصر الأربعة الطبيعية غير الفانية والأزلية، أى النار، والماء، والأرض، والهواء، شهادة خالقها غير الفاني والأزلي، أي الإله العظيم. يتم تكريم هذه العناصر وذكرها في الصلوات ويثنى عليها ولكنها بطبيعة الحال لا تعبد كآلهة ثانوية كما هو الحال في بعض الديانات الأخرى. وهنا أيضا قام الأوروبيون بتضليل العالم حيث سموا أتباع ديانة مزدا يسنا بـ "عبدة النار" وشتان بين العبادة وإبداء الاحترام. ويحترم أتباع هذه الديانة العناصر الثلاثة الأخرى أيضا، أي الماء، والأرض، والهواء، ولكنهم لا يسمون بعبدة الماء وعبدة الأرض وعبدة الهواء[21].

كما يتحدث أنطاكي عن "النبي" زرادشت، وتاريخ ظهوره، وكتابه المقدس، ويذكر في هذا السياق "الزندأفستا"، والصحيح أن "أفيستا" هو الكتاب المقدس بينما الزند هو تفسيره، ومن النصوص التي لها قداستها عند البارسيين. ثم ينتقل إلى "إله أهورامزدا" ويذكر من صفاته خالقا وربا، فهو "خالق الخلق رب السموات والأرض" الذي أوجد هذا الكون في ستة أيام، كما يتناول أمر الصراع بين أهورامزدا وإله الشر الذي ينتصر فيه الله ويلقى بإله الشر في الجحيم، والأمور الأخلاقية التي يلزم على الزرادشتي أن يلتزموا بها فيكتب: "ويقول زردشت في كتابه المقدس إن الله علت كلمته وجلت قدرته أمرهم بأن يسيروا في حياتهم في طريق النزاهة والاستقامة والشرف، وأن تكون أفكارهم دائما منصرفة إلى الأعمال الصالحة لكي ينعموا في الآخرة بجنات الخلد"[22]. ويلاحظ أيضا: "وأول مبدأ من مبادئ النبي زردشت عمل البر

[21] -مجلة ثقافة الهند، مقالة بروفيسور صبر ج هافيوالا، ص: 173.

[22] -المخزنجي، **الهند كما رأيتها**، ص: 41.

والإحسان، ومساعدة الفقراء والمحتاجين، ولذلك يحبون بعضهم بعضا حبا جما، ويساعد غنيهم فقيرهم كل على قدر طاقته، ولا يوجد شحاذ منهم إذ وجود سائل يرجو الإحسان يعد في نظرهم فضيحة وإهانة لهم جميعا"[23]. ويلم أيضا بتاريخ الزرادشتية وصفتها وسيادتها كديني رسمي للفرس، وتقلصها واختفاءها بعد الفتح الإسلامي، والأسباب المؤدية إلى ذلك، وهجرة أتباعها إلى الهند، وعددهم في الوقت الحالي. ومن أسباب الهجرة الواضحة لديه الاضطهاد الديني من قبل المسلمين إذ يقول: وقد انتشر دين زرادشت في جيمع بلاد فارس، وكان الدين الرسمي لجميع الفرس إلى أن فتح المسلمون بلاد العجم، وحطموا هياكلهم، وسلطوا السيف في عنق كل كافر لا يتبع الإسلام، فاضطرت الأغلبية اعتناق الدين الإسلامي وفر الباقون إلى بلاد الهند"[24].

وهذا رأي فيه قدر كبير من التعسف. وقد أشرنا من قبل أن الاضطهاد قد يكون سببا من الأسباب، لا السبب الوحيد، حيث أن معاملة الحكام المسلمين مع الزردشتينن كانت معاملة أهل الكتاب[25]. وهناك دراسات ترى أن الأسباب الاقتصادية رُبَّما اضطرت الزرادشتيين للهجرة من إيران إلى المناطق الأخرى. تقول مانيك سوزان ستائيلز: تصور أساطير البارسيين بشأن هجرة أسلافهم إلى الهند كأن مجموعة محاصرة من اللاجئين الدينيين يهروبون من الحكم الغاشم للغزاة المسلمين المتعصبين لأجل الحفاظ على عقيدتهم القديمة. هذه التواريخ تتحدث عن هروب الزرادشتيين في البداية إلى المناطق الجبلية في إيران، ثم الهجرة إلى هرمز، وأخيرا التوطن في غوجارات، الهند. وفي حين أن مستوطنات البارسيين نشأت بالتأكيد على طول سواحل الهند

[23] -المصدر نفسه، ص: 42.

[24] -أنطاكي، **الهند كما رأيتها**، ص: 41.

[25] -ولا بأس أن نذكر هنا بهذا الخصوص أحمد أمين الذي يقول: "الديانة الزردشتية كانت هي الديانة السائدة في فارس وما حولها في عهد الكيانيين، Achaemenian فلما انتصر الإسكندر سنة 331ق. م. كان ذلك ضربة لهذه الأسرة ولديانتها، ثم انتعشت في عهد الأسرة الساسانية التي بدأت حكمها سنة 226م وظلت هي ديانة الفرس إلى الفتح الإسلامي فاعتنق كثير منهم الإسلام، وفر أولا بعضهم إلى جزائر في الخليج الفارسي ثم إلى الهند، ولا تزال منهم طائفة في بومباى يسمون بالفرسيين Parseec يتمسكون بهذا الدين إلى اليوم؛ وبقيت طائفة في فارس تستمسك بدينها بعد الفتح، واستمرت معابد النار قائمة في كل ولاية من ولايات فارس تقريبا في القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح". فجر الإسلام، ص: 107.

الغربية في غوجارات عقب الفتح العربي لإيران، لا يمكننا أن نكون على يقين من أن هذه الهجرات وقعت كنتيجة للاضطهاد الديني ضد الزرادشتيين. نجح الغزاة العرب في الاستيلاء على الأراضي الزرادشتية في أقل من خمسة عشر عاما، غير أنه استغرق قرونا قبل أن تصبح تلك المناطق ذات أغلبية مسلمة.

تشير الطبيعة التدريجية لهذا الانتقال إلى أن الاضطهاد الديني والإكراه على قبول دين جديد لا يمكن أن يكونا قاسيين أو شائعين إلى الدرجة التي تشير إليها روايات البارسيين[26].

كذلك يبين أنطاكي أهمية النار والشمس ومكانتهما لدى أتباع هذه الديانة، فيقول: "تعتبر النار رمزا للألوهية عند عبدة الشمس والنار ولذلك لا يقيمون الصلاة إلا في هياكل النار ويكون في صدر الهيكل مذبح تستعمل فيه النار ليلا ونهارا ولا تخمد أبدا. كما أنهم يقيمون الصلاة دائما للشمس كذلك"[27]. وكما مر أن الزرادشتيين لا يعبدون الشمس ولا النار، بل الواقع "الصلاة تؤدى متوجها إلى الشمس والنار أو غيرهما من مصادر الضوء التي تمثل الضوء والطاقة الإلهيين لأهورا مازدا"[28].

وأما نوال السعداوي فحديثها مع مضيفتها على مائدة الطعام يلمح إلى دخان الصراع المتصاعد بين التجديد والتقليد: "دعانا هذا الفارسي وزوجته إلى العشاء وجلسنا نأكل العدس باللحم (طبق خاص في الهند يقدم يوم الأربعاء فقط؛ لأن الأرز ممنوع في ذلك اليوم). وقال الزوج مداعبا زوجته (الفارسية أيضا): "سوف تأكلك الفالتشرز أكلا يا حبيبتي." وضحكت الزوجة وهي تقول: هذه الطيور تأكل العينين أولا ثم تأكل بقية الجسم. إنها تحب العينين أكثر من أي شيء، وكاد الأكل يقف في حلقي، وتوقفت قليلا وسألت هذه الزوجة: إن هذه عادة بشعة. وقالت الزوجة: بعد الموت لا نحس شيئا. الهندوكيون يحرقون جثثهم، والحرق لا يختلف كثيرا عما نفعل نحن الفارسيين، بل

[26] – The Death of Ahriman: Culture, Identity and Theological change among the Parsis of India, Maneck Susan Stiles, University of Arizona, P: 39, https://books.google.com/books/about/The_Death_of_Ahriman.html?id.

[27] –أنطاكي، **الهند كما رأيتها**، ص:42.

[28] – http://www.bbc.co.uk/religion/religions/zoroastrian/worship/worship.shtml

إننا أكثر إنسانية؛ لأننا نطعم هذه الطيور الجائعة بدلا من حرق الجثث بغير فائدة. وهذه هي الحكمة من هذه العبادة.

وقال الزوج: لكنها فعلا عادة بشعة، وبعض الناس الآن يثورون عليها ويطالبون بتغييرها. وقالت الزوجة: بعضهم يطلبون في وصيتهم ألا تأكل الطيور، ويحرقون أو يدفنون، لكن هؤلاء يتعرضون لغضب الآلهة وغضب رجال الدين الفارسي الذين يرفضون الصلاة على أجسادهم، وتدفن بغير بركة رجال الدين.

وضحك الزوج قائلا: رجال الدين يحافظون دائما على أية عادات دينية من أجل أن يعيشوا وتكون لهم وظيفة وأجر، أنا شخصيا أفضل أن تدفن جثتي دون بركة هؤلاء الرجال[29].

ونرى فتح الله أنطاكي يولي طفولة المجوسي اهتماما خاصا، والمعلومات التي يوفرها لا نجدها لدى زملائهم، فيذكر من طقوسهم: "أن الطفل المجوسي يولد في الطبقة الأرضية من المنزل... ومتى بلغ المولود اليوم السابع من عمره جيء بأحد العرافين ليقرر طالع الطفل ويختار له اسما، فيطرح على والديه عدة أسماء ليختاروا منها اسما لولدهما، ثم يأتي بلوح عريض من الخشب ويرسم عليه نقوشا رمزية وعلامات مبهمة بالطباشير، وبحسب نجم الطفل وطالعه والكوكب الذي ولد تحت تأثيره يكتب بيانا بما يأتي للطفل بالسعد والنحس وما يجب عليه تلافيه أو اتباعه ويحفظ والدا الطفل هذا اللوح ليكون دليلا ومرشدا لولدهما طول حياته، يتبع ما جاء فيه لينجو من الشر ويفوز بالخير. ومتى بلغ الطفل السنة السابعة من عمره احتفل بتطهيره فيأتي الكاهن ويغسله بالنيرانج (بول البقر) ويضع حول وسطه الكوستي وهو حبل تفتله نساء الكهنة من اثنين وسبعين خيطا تمثل الآيات الاثنين والسبعين في سورة "الياسنا" إحدى سور الكتاب المقدس "الزندافستا".

وعند ما يشد الكاهن هذا الحبل حول خصر الصبي يتلو آيات من الكتاب المقدس وينشر فوق رأسه قطعا من الفاكهة والبذور والعطور.

[29] -السعداوي، **رحلاتي في العالم**، ص: 185.

ومتى تم هذا العمل اعتبر الصبي مجوسيا يدين بدين زردشت وأصبح مسؤولا عن أعماله أمام الله يحاسب عليها، وأما إذا مات الطفل قبل ذلك فإنه يدخل الجنة دون حساب لأنه لم يصل إلى السن التي يجازى فيها عن أعماله"[30].

وهنا ينتهي حديث فتح الله أنطاكي عن البارسيين مكتفيا ببيان المراسم الخاصة بالطفولة، ولا يشير حتى إشارة خاطفة إلى الطقوس المتصلة بالموت، الطقوس التي بدت غاية في الغرابة لدى الآخرين من زملائه الرحالين فلفتت أنظارهم. وكان محمد المخزنجي أكثرهم اندهاشا واستغرابا لهذه الطقوس وأكثرهم تفصيلا لها.

محمد المخزنجي:

تحدث محمد المخزنجي عن مشاهداته الهندية في موضعين من كتابه "جنوبا وشرقا: رحلات ورؤى"، فدون في مكان مشاهداته وانطباعته عن المدن الهندية الثلاث؛ دلهي وآجرا وجائيفور بعنوان "المثلث الذهبي"، بينما سجل في موضع آخر عما شاهده في ممبئي تحت عنوان "الهند (مومباي) من أبراج المجوس إلى معابد الفلوس"، كما يسجل ما رآه في "دهوبي غات" و"ضريحة حاجي علي" الواقعتين بين هذه الأبراج وتلك المعابد.

قد أشرنا من قبل إلى السببين الرئيسين اللذين استلفتا نظر محمد المخزنجي إلى البارسيين، أي المكانة الاجتماعية الممتازة وطريقة تدفين الموتى. ويكاد حديثه يدور حولهما، ففندق تاج محل الأسطوري وتلال مالابار المظللة لـ"الدوخمات" (أي مقبرة البارسيين) يشدان اهتمامه ويشغلان خواطره ليرسم لوحة فنية بديعة لمدينة مومباي، تبدو كأن المدينة ستقفز من صفحات الكتاب بكل ما تحوى. فيمكن أن يراها القارئ ماثلة حية نابضة صاخبة من عين ريشة المخزنجي.

فبعد بيان أسطورة فندق تاج محل التي تحققت على يد جمشيد جي تاتا يقول: وعندما أوليت ظهري لفندق تاج محل وأنا أقف في الجانب الآخر متأملا تلال مالابار الغائمة في الضباب المعلق فوق الماء، كانت أعجوبة المجوسي تاتا ماثلة في ذهني المتشوق

[30] -أنطاكي، **الهند كما رأيتها**، ص: 43.

للاطلاع على أسطورة مجوسية أخرى فوق تلال "مالابار" فمكثت أياما أطوف بأركان "مامباي" وعيني على قمة "مالابار""[31].

كان إطلاع محمد المخزنجي على تواجد الزرادشتيين في العالم انكشافا، فأثار ذلك ما يثير المجهول من فضول وحب استطلاع. "ولم أكن أتصور أبدا حتى سنتين خلتا أن يكون هناك مجوس باقون في هذا العالم"[32]. ومن هنا تبدأ مغامراته لاستكشاف المجهول. خلال زيارته لكراتشي حاول أن يطلع على سر برج الصمت، وحاور الحارس وداوره، وضرب صفقة لذلك، ولكن حينما وصل المكان المطلوب ليلا توجس خيفة على نفسه نظرا لحوادث القتل والفتك والاغتيال في كراتشي، فخلى الفكرة... حتى إذا جاء إلى "مامباي" عادت شهية فضوله تتفتح نحو ملامسة مزيد من الحقائق عن المجوس.."... فضولي عاد أقوى في مامباي التي تعد من أكثر مدن العالم أمانا رغم تزاحم سكانها الذين يقترب عددهم من الخمسة عشر مليونا، فالمسالمة هي الطابع الغالب للهنود... "[33].

على أية حال تحدث محمد المخزنجي في رحلته هذه عن الموضوعات العامة المتعلقة بالبارسيين، فتحدث عن زرادشت، وتاريخ ظهوره، والمبادئ الأساسية لهذه الديانة، وكتابها، وطائفة البارسيين وطقوسهم وتقاليدهم، ونجاحهم الباهر في الصناعة والاقتصاد، وأخيرا طرق تدفين الموتى التي للاطلاع عليها تجشم المعاناة، واحتال بما يذكرنا بأنيس منصور في مغامراته للقاء قداسة دلائي لاما الذي كان لجأ في ديرادون بعد هروبه من تيبت[34].

وتمهيدا للدخول في صميم الموضوع، يتحدث المخزنجي بإيجاز بالغ عن معتقدات الزرادشتية وتعاليمها الأخلاقية، فيقول إن المجوسية أو الزرادشتية هي تعاليم نقلت عن المبشر بها في سبع عشرة ترنيمة تسمى "جاثا" ومعناها الأناشيد يضمها كتاب الزردشتيين المقدس المسمى "الأبستاق" أي المتن، وفيها ينص على أن الله هو السيد

[31] -المخزنجي، **جنوبا وشرقا: رحلات ورؤى**، ص: 368.

[32] -المصدر نفسه، ص: 368.

[33] -المصدر نفسه، ص: 369.

[34] -راجع رحلة أنيس منصور إلى الهند في كتابه "**حول العالم في 200 يوم**" .

الحكيم "أهورامزدا" خالق السموات والأرض، وهو الأول والآخر. وتعارضه الروح الشريرة، الشيطان "أهرمان" المتسمة بالنوايا الشرسة والتكبر والكذب.

وعلى البشر أن يختاروا، فإن سلكوا طريق الشيطان تمتلئ حياتهم بالأفكار الشريرة، والكلمات الشريرة، وإن سلكوا طريق الحق فسوف يكونون مع العقل الخير، ويبلغون الكمال والخلود، والورع وملكوت السماوات.

ويلاحظ المخزنجي: أن "هذا القطع بين السبيلين لا يقود إلى الزهد عند الزردشتيين. فالزهد عندهم كالانغماس في الشهوات، خطيئة كبرى... لا ينصح الزرادشتيون أتباعهم بالاكتئاب "فالحياة مرحة ولك أن تفعل ما تشاء في قدسية"....العمل "ملح الحياة" وعلى الناس "أن يقهروا بعقولهم الشكوك والرغبات السيئة، وأن يقهروا الجشع بالرضا، والغضب بالصفاء والسكينة، والحسد بالإحسان، والحاجة باليقظة؟ والنزاع بالسلام، والكذب بالصدق"[35].

بالإضافة إلى ما ذكرنا إنه مثل الأنطاكي يتعرض للطفل البارسي ولبعض الطقوس الخاصة به، فيذكر "السدرة" أو الصديري و"كوشتي" المتألف من اثنين وسبعين خيطا اللتين ينبغي للطفل لبسهما إذا بلغ السابعة أو بعدها بثلاث وأربع سنوات. ويشير إلى مراسم "نافجوت" أي التعميد الذي يجب على كل زرادشتي أن يخضع له...[36] كما يذكر الكاهن المجوسي الذي يسمى دستورا وملابسه من ثياب بيضاء وعمامة بيضاء وقناع على الفم حتى لا تتدنس النار المقدسة، فيستطرد المخزنجي قائلا: "والنار رمز "أهورامازدا" فهم لا يعبدونها بل يتوسلون بها، وهي لا بد أن تحفظ داخل المعبد بعيدا عن التلوث، فلا ينبغي أن تراها الشمس أو عيون غير الزرادشتيين، وقد حاولت

[35] -المخزنجي، **جنوبا وشرقا: رحلات ورؤى**، ص: 370.

[36] -ويتم إجراء تقاليد نافجوت كي يعي طفل بمشاعره وواجباته الدينية، وعادة يتم إجراؤها بينما يكون عمر الطفل من 7 إلى 11 سنة. يجب على الطفل أن يكون متقنا في بعض الصلوات الأساسية التي يتلوها أمام الآخرين بصوت عال. يتم ارتداء قميص رقيق مع جيب صغير مثل مربع. يؤكد للطفل أن الجيب المخيط قرب القلب هو لجمع أعماله الحسنة والسيئة. كما يبلغ أن الأبوين يكونان مسؤولَين عن الأعمال قبل إجراء تقاليد نافجوت، ولكن الآن فقد كبر بشكل كاف كي يميز الخير من الشر في العالم وسوف يكون مسؤولا عن أعماله. ففي الحقيقة يدل التعميد نافجوت على نوع من النضج والرشد أيضا لدى الأطفال ذكورا وإناثا". مجلة ثقافة الهند، ص: 180.

اختراق ذلك بالحيلة، وبالنقاش الطويل، وباتصالات التوصية من بعض المهمين في مامباي، دون جدوى، بل أثارت معاودتي للمحاولة غضب حراس معبد النار حتى أنهم أغلقوا أمامي البوابة الرئيسية للمعبد بعد أن كنت دخلت وصعدت إلى البهو ووقفت على باب القاعة الرئيسية"[37].

كذلك يسجل المؤلف في مشاهداته عدد البارسيين المتناقص بصورة مستمرة إما بسبب الموت الطبيعي أو زواج الجيل الشاب خارج نطاق الطائفة، حيث لا يقبل مثل هذا الزواج، وإذا قام بذلك أحد طرد من الجماعة.

ولنمش مع المخزنجي إلى "تلال مالابار" التي تجره بخضرتها اليانعة المنبسطة وجمالها الطبيعي، وهدوئها الساجي، واختلافها الشديد عن الحياة في الأحياء الشعبية الأخرى حيث الفقر والضجيج والضوضاء يشكل الملمح الأساسي، إلى الاستطرادات والوقفات لبيان التباين الصارخ في مستوى الحياة بين طبقة وأخرى. "كان صعودنا في معارج تلال مالابار كأنه انتقال من عالم إلى عالم، من شوارع الضجيج والزحام إلى أجمات لا يُسمع فيها غير أصوات الطير بينما البحر يهبط مزيدا تحتنا وتتراجع الأشجار كاشفة عن قمم الأبراج السكنية في أرقى أحياء مامباي المحيطة بالتلال، والتي تعتبر من أكثر أماكن العالم غلاءً"، وأيضا "...لقد كنا نبحث عن "أبراج الصمت" التي يسجي عليها الزرادشتيون موتاهم لتنهشهم العقبان حتى العظام. وكان العالم الذي تصعد فيه يتناقض مع ما نبحث عنه، فقد كنا نبحث عن أغرب عملية دفن للموتى، في دروب حدائق غناء"[38].

"في صباح شتوي مشمس اتجه" محمد المخزنجي إلى تلال مالابار ليحقق حلما طالما راوده: "لعلني أكون أول كاتب عربي استطاع الاقتراب من أبراج الصمت فوق تلال مالابار إلى هذا الحد كما أخبرني المسئولون عن هذه الأبراج، حد الوصول إلى الباب الأخير الذي لا يعبره في أرواب بيضاء غير حاملي المتوفى من خاصة خاصته ومن خاصة القائمين على سر أسرار الدفن المجوسي"... ويربت كتفه على نجاحه ودهشته لا

[37] -المخزنجي، **جنوبا وشرقا: رحلات ورؤى**، ص: 372.

[38] -المصدر نفسه، ص: 371.

تكاد تفارقه قائلا: "ولا أزعم أني وصلت إلى ذلك بمقدرة استثنائية، بل هو الحظ الصحفي الحسن، وإلحاح الفضول وبعض الإطلاع الذي مكنني من محاورة مقنعة، والوعد الذي قطعته على نفسي مقابل المعرفة: أن أنقل ما رأيته وما سمعته وما عرفته، دون إضافة...."[39].

هنا على تلال مالابار صحبه "دارادي إلافيا" المسؤول في دونجيروادي كدليل، فيشاهد معه عربة الإسعاف، وقاعات الصلاة، وقاعات تجهيز الجثث، والتوابيت الفولاذية، ونموذجا لأبراج الصمت، إلى أن يصل موضعا: "لم يكن ممكنا بأى شكل أن نخطو خطوة بعده حيث وقفت في وجهنا بوابة صماء بيضاء"[40].

أما "دونجيروادي" أو المقبرة فهي حسب المخزنجي: " ... أبعد ما يمكن عن شكل المقبرة؛ فثمة أبنية بيضاء فخمة ذات سقوف جمالونية من القرميد، ودروب مشجرة ونظيفة بين هذه الأبنية، ودرج حجري يصعد حتى يتوقف أمام بوابة حديدية مزخرفة ومطلية باللون الأبيض، يليها درج آخر يصعد نحو بوابة أخرى مماثلة، وفي النهاية بوابة بيضاء صماء في سور دائري عال. وداخل هذا السور توجد أبراج الصمت، عددها خمسة، وكل منها تسمى "دوخما" إضافة إلى واحدة صغيرة تسمى "شوترا" مخصصة للأطراف المبتورة والأعضاء المستأصلة، وأقدم هذه الدوخمات بني ما بين عامي 1672 و1673 ميلادية واسمها يحمل اسم العائلة الثرية التي شيدتها؟ "مودي هيرجي"[41].

هنا تنتهي المشاهدة وما يقدمه المخزنجي من معلومات عن عملية التشييع والدفن هي مستفادة من كتاب من كتب الزردشتيين، وهي كما يلي:

"يُجلب جسد المتوفى المجوسي – بعد استيفاء شهادة الوفاة من طبيب مجوسي على ملاءة مضاء في صديري وسروال أبيض، ويعلن عن الوفاة والتشييع والتأبين، وتقرع الأجراس في دونجير وادي، فيما يجهز البخور وخشب الصندل والعطر والأردية البيضاء، تُغسل الجثة من قبل أناس من جنس المتوفى وتُجفف وتلبس الثياب التي حدثت فيها

[39] -المصدر نفسه، ص: 373.

[40] -المصدر نفسه، ص: 374.

[41] -المصدر نفسه، نفس الصفحة.

الوفاة بعد غسلها ثم تسجى الجثة على طاولة رخامية بينما ينثر العطر والبخور وتقام صلوات معينة تستمر أربعة أيام، وفي فجر اليوم الرابع يقدم لأقرب نار "مقدسة" مدد من وقود معين صدقة عن روح المتوفى. وفي النهار تحمل الجثة في تابوت فولاذي يرفعه حمالون زرادشتيون معينون لهذه المهمة، يتبعهم الكهنة ثم أقارب الموتى فأصدقاؤه، جميعهم في أرواب بيضاء ويسيرون خلف التابوت اثنين اثنين، وبين كل اثنين منديل أبيض يسمى "بايفاند" (ومعناها الرباط) يمسكه كل من طرف وغايته الرمزية هي التواصل للتآزر في تحمل أحزان الفراق.. وفي داخل السور الأخير يُسجَّى الجثمان بعد شق ملابسه على شبكة فولاذية فوق أحد أبراج الصمت وينصرف الجميع حتى تقبل العقبان لتؤدي عملها. وهو عمل دقيق!... تنطلق غيمة العقبان منقضة على الجثة بمناقيرها الجارحة القوية، وفي نحو عشرين دقيقة فقط لا يبقى غير الهيكل العظمي عاريا تماما إلا من بياضه. وتمر الأيام دون أن ينقطع إحياء مناسبات عديدة لروح الفقيد ومنها يوم ميلاده، ويستمر ذلك لمدة سنة خلالها تحوِّل شمس الأعالي الحارة والمطر الموسمي المدرار الهيكل العظمي إلى فتات ثم طحين من الكلس يهبط عبر مصفاة برج الصمت إلى البئر المركزية ومنها إلى قناة يعترضها مرشح من الرمل والحصى الدقيق يحتجز رماد الكلس وتنتهي المياه إلى خزان تحت أرضي مبطن بمرشح آخر حتى تمر المياه في النهاية "نقية" إلى البحر"[42].

وأخيرا تنتهي مشاهدات محمد المخزنجي على مقارنة لأسلوب التدفين بين الزرادشتية والإسلام. ولكل من المخزنجي ودستور خورشيد دابو (أحد كبار الرهبان الزردشتيين) دلائله. في رأي الراهب "إن عملية التخلص من الأجساد الميتة ترتبط بقواعد أساسية خمس في الزرادشتية هي الصلاح والاتحاد والمنطقية والإحسان، والنقاء. وذلك كله عبر : "أ"الإحسان بتقديم الجسد الميت للعقبان الجائعة فهي مخلوقة لذلك وهذا من طعامها الطبيعي، "ب" السرعة في التخلص من الميتة حيث لا يستغرق ذلك إلا 20 دقيقة، "ج" الاقتصاد فلا حاجة لمقبرة أو خشب للحرق ..."د" المساواة: فالميت الغني والميت الفقير يتساويان في المعاملة وبقايا العظام تلتقي كلها في الوعاء المركزي دون تفرقة "ه" مراعاة

[42] -المصدر نفسه، ص: 375.

الصحة العامة، حيث لا تلوث للعناصر الأربعة للطبيعة -الأرض والنار والماء والهواء فتظل نقية، "و" نبذ العاطفة الكاذبة، فلا تتميق للموت، ولا أضرحة، ولا نصب ولا توابيت"[43].

أما المخزنجي فيرى لمنشأ هذه الطريقة لدى الزرادشتيين أسبابا أخرى لا علاقة لها بالدين، ويحمد الله على نعمة الإسلام في طريقة تدفين الموتى قائلا: "فالعودة إلى باطن الأرض هي عودة إلى الرحم الحنون الذي منحنا إياه رب العالمين، فالأرض شريط رحمة حقيقي، منها نشأنا وإليها نعود، لتستمر دورة الأخذ والعطاء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أرى أن الوطن ليس هو المكان الذي نشأنا فيه ونشأ أحبابنا، فقط، بل هو بشكل أعمق وأوثق المكان الذي لنا في ثراه أحباب راحلون، نتذكرهم فنخفف الوطء وترق القلوب، درس روحي جميل في معاني الترحم والرحمة"[44].

خاتمة البحث:

لفتت طائفة البارسيين في الهند رغم ضآلة عددها أنظار معظم الرحالين العرب. وذلك لسببين رئيسين؛ نجاحهم الباهر في مجال الاقتصاد وطريقة تدفين الميت. فلهذه الطائفة دور مؤثر حيوي في تصنيع الهند وأولويات في مجالات شتى تجعلها الحائزة على قصب السبق دون الطوائف والجماعات الهندية الأخرى. أما رغبة الاطلاع على تدفين الموتى أو التخلص منهم عبر "الدوخمات" أو أبراج الصمت حيث النسور والعقبان والأنواء والفصول تعمل عملها فتثير فضول أغلبية السائحين. ولكن ليس هذان الأمران وحدهما يستوقفانهم، بل إلى جانب ذلك إنهم يتحدثون عن جميع ما يمسهم من معتقدات وسلوك وتقاليد وطقوس. فقد تناولوا الزرادشتية ونبيها وتعاليمها ومبادئها الأخلاقية وهجرة أتباعها إلى الهند، وما لهم من طقوس من الولادة حتى الموت. ولا شك أن الرحالين يختلفون فيما بينهم حسب نزعاتهم وميولهم وتجاربهم في إيجاز البيان وتفصيله. مر أنيس منصور بجملة، وناصر العبودي بأسطر حول طريقة التدفين. أما أمينة السعيد فيشغلها هموم المرأة الهندية على اختلاف طبقاتها وانتماءاتها، ومن بينها المرأة البارسية. وبين

[43] -المصدر نفسه، ص: 376.

[44] -المصدر نفسه، نفس الصفحة.

جميع هؤلا نجد فتح الله أنطاكي ومحمد المخزنجي أكثر تفصيلا عن نواحي الحياة المختلفة لحياة البارسيين في الهند، ثم يكاد المخزنجي يمتاز من غيره بأسلوبه السردي الجميل. غلب على معظم الرحلات الأسلوب العلمي التقريري، بينما تتسم رحلة المخزنجي بالأسلوب الأدبي الحكائي القصصي وما استهل به رحلته إلى مدينة مومباي وما قدم لها من وصف جغرافي لا يتأتى ذلك إلا لأديب قاص وروائي... ولا شك أن المخزنجي يعرف أسرار هذا المجال.

المصادر والمراجع:

- أمين، أحمد، فجر الإسلام، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2004م.
- أنطاكي، فتح الله، الهند كما رأيتها، مطبعة وديع أبو فيصل، شارع إبراهيم باشا بمصر، تاريخ الطبع غير مذكور.
- السعداوي، نوال، رحلاتي في العالم، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي سي آي سي، وندسور، 2017.
- السعيد، أمينة، مشاهدات في الهند، مصر، دار المعارف، 1946م.
- العبودي، محمد بن ناصر، في غرب الهند: مشاهدات وأحاديث في شؤون المسلمين، كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، ذو الحجة 1417هـ - العدد180 السنة الخامسة عشرة.
- مجلة ثقافة الهند، المجلد: 68، العدد:2، أبريل -يونيو 2017م.
- المخزنجي، محمد، جنوبا وشرقا: رحلات ورؤى، القاهرة، دار الشروق، 2011م.
- منصور، أنيس، حول العالم في 200 يوم، القاهرة، دار الشروق، 2002م.

1. The Death of Ahriman: Culture, Identity, and Theological change among the Parsis of India, Maneck Susan Stiles, University of Arizona, 1994.
2. https://books.google.com/books/about/The_Death_of_Ahriman.html?id.
3. A Study of World's Major Religions, Farida Khanam, Chaus Publishing Company, Aurangabad, 2014.
4. International Journal of Interdisciplinary social sciences, vol. 6, no: 2, http://hdl.handle.net/10536/DRO/DU:30041789.